الدرس السادس

موقف العباد من نِعَم الله تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾(إبراهيم:٢٨-٣١).

موقف العباد من نِعَم الله تعالى :

ذكرنا من قبل أنَّ سورة إبراهيم تدور حول محوَرَيْن أساسيين :

المحور الأول : الرسالة والرسل ، وموقفهم من قومهم ، وموقف قومهم منهم ، وموقفُ الله تعالى من الجميع ، بأن ينصر الرسل ، ويُهلك الظالمين ، ويُسكنهم الأرضَ من بعدهم .

والمحور الآخر : هو محور النِّعم ، نِعَم الله تعالى على عباده ، وموقف العباد من هذه النِّعم ، فقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) .

دلالة التعبير بقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾

حَوْل محور النِّعم تَتحدَّث هذه الآية ، تُخاطبُ رسولَ الله ﷺ ، وهو أوَّل وأوْلى مَنْ يُخاطَبُ بالقرآن ، أو تُخاطب كلَّ مَنْ يصلح للخطاب ، حين تقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .

OBEIKAN.COM

وقد رأينا هذا التعبير في القرآن أكثر من مرَّة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم:١٩) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (إبراهيم:٢٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، يقول فيها العلماء : استفهامٌ تقريريٌّ أو إنكاري ، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : ألم يَنْتَهِ إلى علمك ؛ لأنَّ الرؤيا هنا علميَّة .

الرؤية ـ كما ذكرنا من قبل ـ لها ثلاثة معان : الرؤيا البصريَّة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، أي : ألم تنظر ببصرك .

أو الرؤيا المناميَّة : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤)، فهو رأى في المنام .

والرؤيا العلمية كما في هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ .

وإنْ كان بعض العلماء يقول : الرؤية هنا بصريَّة ؛ لأنه يُكلِّمهم عن كفار قريش ، كفَّار مكة ، وهؤلاء يراهم . ولكنه يقول : ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ ﴾ ، وهذا أمرٌ لم يُرَ بعد ، وإنما عُرف بالعلم عن طريق الوحي .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ ﴾ ، أي : ألم يَنْتَهِ علمك يا محمد ، أو يا أيُّها المُخاطَب ، إلى ﴿ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ ، يقصد بهؤلاء أوَّل ما يُقْصد ؛ كفَّار مكة ، يقصِدُ مشركي العرب ، الذين جاءهم محمد ﷺ برسالة التوحيد ، رسالة الحقِّ والخير ، رسالة الهُدى والنور ، رسالة العدل والإحسان ، فكذَّبوا وعَصَوا ، وردُّوا هذه النِّعمة التي أنعم الله عليهم بها .

النِّعم قسمان : ماديَّة ومعنويَّة :

والنِّعم قسمان : نِعَمٌ ماديَّة .

ونِعَمٌ معنويَّة . وكثيرٌ من الناس لا يهمُّهم إلا النِّعم المادية ، النِّعم الحسيَّة ، التي يبصرونها بأعينهم ، ولكن في الواقع النعم المعنوية هي أعظم النِّعم .

هناك بعض الناس لا يرى النعمة إلا الأكل والشرب ، والنِّعم التي يحسُّها بحواسِّه ، لا يهمُّه نعمة العلم ، أو نعمة الإيمان ، أو نعمة الأخلاق ، ولكن في الواقع النعم المعنويَّة هي أعظم النِّعم .

نعمة الهداية بالنبوَّة :

وأعظم نعم الله على عباده : نعمة الهداية بالنبوة والرسالة والوحي .

الله سبحانه ينعم علينا بألوان من الهداية : الهداية الحسيَّة عن طريق البصر والحواسِّ الخمس .

والهداية العقليَّة عن طريق ما آتى الله الإنسان من عقل به يفكِّر وبه يدبِّر .

وأعظم من ذلك : نعمة الهداية العظمى عن طريق وحي الله عزَّ وجلَّ ، إذا كان العقل يُصحِّح خطأَ الحواسِّ ، فإنَّ النبوَّة تُصحِّح خطأَ العقول ، العقول لو تُركت لنفسها كثيراً ما تضلُّ .

تُرِكَ الناس لعقولهم فعبدوا الأحجار .

تُرِكَ الناس لعقولهم فوَأدوا البنات ، وقتلوا أولادهم من إملاق أو خشيةَ إملاق .

تُرِكَ الناس لعقولهم فشربوا الخمور ، وارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ولذلك كان لا بد من نهج النبوَّة هذه ، وختَم الله هذه النبوات بنبوة محمد ﷺ ، وهي نعمةٌ تعدُّ من أعظم النعم ، وتستحقُّ الشكر ، ولكنَّ الناس بدل أن يشكروها كفروها ، والله تعالى يقول : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥١،١٥٢) . مقابل إرسال هذا الرسول ، الذي يعلِّمكم الكتاب والحكمة ، ويزكِّيكم ، ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ويتلو عليكم آيات الله : اذكروا الله واشكروه ، هذه النعمة يجب

أن تُذكر وتُشْكَر . ولكنهم لم يقابلوا هذه النعمة العظيمة بالشُّكران ، بل قابلوها بالكفران ، بدَّلوا نعمةَ الله كفرًا ، ولذلك يُعجِّب الله نبيَّه ، ويُعجِّب كلَّ مخاطب من شأن هؤلاء .

التعجُّب من أمر المبدِّلين نعمة الله كفرًا :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، عبارة تعجيب لأمر هؤلاء ، أي : اعْجَب من موقف هؤلاء الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا .

وقياسًا على هؤلاء ، يجب أن يَعْجَبَ الإنسان ويَدْهَش من كلِّ مَن بدَّل نعمة الله كفرًا ، مَنْ آتاه الله نعمةً فلم يستخدمها فيما يُحِبُّ الله ويرضى ، لم يستخدمها فيما جُعلت له ، وإنما استخدمها في معصية الله ، وفي إيذاء خلق الله .

أعطى الله الإنسانَ الذكاء ، وبعضُ الناس استعمل ذكاءَهُ فيما يضُرُّ الخلق ، أعطى اللهُ الإنسانَ العلم : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٥) ، علَّمه أشياء يسيرة ، كيف يكتشف أسرار الكون ، وكيف يكتشف الظواهر الكونية ، وسخَّر له هذه القوانين ، ولكنه للأسف لم يُسَخِّرها في خدمة الناس ومنفعة الخَلْق ، وفي العِمْران والحياة ، ولكنَّه استخدمها في الخراب والموت . كما نرى الحضارة الغربيَّة كيف استخدمت العلوم ، استخدمت الأسلحة النوويَّة ، والأسلحة المتطوِّرة والقنابل الذكيَّة ، ومثل هذه الأمور ؛ استخدمتها في التدمير والتخريب والإهلاك والبوار .

أعطى الله الإنسان هذا الهاتف المحمول (الموبايل) بعض الناس بدل أن يستخدمه في المصالح وإجراء المنفعة وتيسير الأمور ؛ وبعضهم استخدمه في الصفقات المحرَّمة ، وفي معاكسة النساء والفتيات ؛ كلُّ هؤلاء بدَّلوا نعمة الله كفرًا .

كثير من الناس بدَّلوا النعمة ، أنعم الله على الناس بأشياء كثيرة في هذا العصر من جرَّاء استخدام العلم والتكنولوجيا ، وكان المفروض أن يستخدم الناس هذا التسخير الإلهي في طاعة الله ، وفي مصلحة عباد الله ، ولكنهم لم يفعلوا ، وبدَّلوا

نعمة الله كفرًا كما بدَّل عتاة كفار العرب وكبار مشركي قريش الذين أسكنهم الله حرمًا آمنا يُجْبى إليه ثمرات كل شيء ، وشرفهم بإرسال رسول منهم ، فكفروا بكلِّ ذلك ، كفروا بالقرآن ، وكفروا برسالة محمد ﷺ ، وآذَوْه وآذوا أصحابَه ، وأخْرَجُوهم من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا : ربُّنا الله .

دار البوار :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾

البوار : أي الهلاك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (الفتح:١٢) ، أي : هالكين .

ودار البوار هي : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ : يدخلونها ، ويقاسُون حَرَّها وهَوْلَها وعَذابَها .

﴿ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ ، جهنَّم : بئس القرار ، أي وساء سوءًا ـ لا يوجد أشد منه ـ مكان إقامتهم واستقرارهم . وأيُّ قرار هذا الذي يقرُّ أو يستقرُّ أو يستمرُّ في جهنَّم ، لو كان يدخل فيها يومًا أو يومين ، أو شهرًا أو شهرين ، أو سنة أو سنتين ، أو مائة سنة أو مائتين ، أو ألفًا أو ألفين ، لا . . ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ، والعياذ بالله .

الإنسان يعيش في الدنيا مستمتعًا باللذائذ والشَّهوات ، ومن كلِّ ما لذَّ وطاب من الحلال ومن الحرام ، فإذا جيء به يوم القيامة ، وغُمس في جهنم غمسة واحدة ، ثم يُسأل : « هل أصابك نعيم قط؟ » هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول : « لا ، ما أصابني نعيم قط »[1] . غمسة واحدة تُنسيه كلَّ نعيم الدنيا ، فما بالكم بمَن يقرُّ في جهنَّم ويقاسي حرَّ نارها ، وقبحت المستقر .

---

(١) رواه مسلم في صفة القيامة(٢٨٠٧) ، وأحمد (١٣١١٢) ، عن أنس بن مالك .

OBEIKAN.COM

الكبراء والزعماء الذين قادوا قومهم إلى الهلاك :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ ، وهذا إشارة إلى أنَّ هؤلاء القوم هم كبار القوم ، زعماؤهم الذين قادوا قومهم إلى هذا الهلاك والدمار والعذاب .

الذين يقودون الأقوام دائمًا هم السادة والكبراء والزعماء الذين يَتْبعهم الناس ، كما يقال : الناس على دين ملوكهم .

لذلك يقول الضعفاء يوم القيامة : ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب:٦٧) ، هؤلاء الكبراء هم دائمًا سبب هلاك أقوامهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ (الأنعام:١٢٣) .

وكذلك الملأ دائمًا ـ كما يُعبِّر القرآن ـ يعني أشراف القوم ، هم الذين يُضلُّون القوم ، رأينا فرعون يقود قومه إلى النار ، فرعون ومَنْ معه من الملأ ، يقول الله تعالى عنهم : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (القصص:٤١) ، هم أئمةٌ ، ولكن أئمة في أيِّ شيء؟ في الضلال ، مثل إبليس زعيم الزعماء ، فهؤلاء أئمةٌ يَدْعُونَ إلى النار ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، هو يتقدَّمهم ، ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ (هود:٩٦-٩٨).

بين قادة الشر وقادة الخير :

فهناك قومٌ يُوردونَ قومهم المهالك ، وأيُّ مَهْلَكةٍ أعظم من النار .

وهنالك قومٌ يقودون قومهم إلى الخير ، خَيْري الدنيا والآخرة ، كما قادت مَلَكة سبأ قومَها أهل سبأ في اليمن ، قادتهم إلى خَيْري الدنيا والآخرة ، وأسْلَمت مع

سُليمان لله ربِّ العالمين ، وَجَنَّبتهم حربًا خاسرةً ، وذلك كان بحكمتها وما رزقها الله من حُسْن الفِطْنة والفَهم والكياسة والتَّدبُّر في عواقب الأمور .

اتِّخاذ الأنداد لله :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾

هؤلاء الذين أحلُّوا قومهم جهنَّم دارَ البوار ، جعلوا لله أندادًا مُمَاثلين لله ، ونظراء له ، أشركوهم مع الله ، أو عبدوهم من دون الله ، واتَّخذوهم آلهة ، وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣) . وكذبوا ؛ فلا يُقرِّب إلى الله إلا التوحيد ، ولا يقرِّب إلى الله إلا العمل الصالح الخالص لوجهه ، الشرك لا يقرِّب إلى الله ، بل يُبعد عن الله .

وكلمة ﴿ أَندَادًا ﴾ ، أي : شركاء ، كأنَّهم قُرناء أو أمثال لله عزَّ وجلَّ !!

الله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٢) .

الله تعالى ليس له نِدٌّ ، وليس له مثيل ، وليس له شريك ، وليس له ولد : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:١-٤) ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء:١١١) ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) .

ولكنَّ هؤلاء اتَّخذوا من دونه آلهةً لا يَخلُقون شيئًا وهم يُخْلَقون ، ولا يَملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ، ولا يملكون مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا ، ولا ينفعهم ذلك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨) .

فهؤلاء اتَّخذوا أندادًا ، اتَّخذوا أصنامًا ، اتَّخذوا آلهةً زائفةً وعبدوها مع الله ، وظنُّوا أنها تجلب لهم الخير أو تدفع عنهم الضرَّ ! وهي لا تملك لنفسها نفعًا

OBEIKAN.COM

ولا ضرًّا ، فكيف تملكه لغيرها؟ هي لا تُبصر ولا تسمع ، ولا تُعطي ولا تمنع ، ولا تضرُّ ولا تنفع .

معنى اللام في قوله تعالى : ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ :

هل هذه اللام في قوله : ﴿ لِّيُضِلُّواْ ﴾ . لام التعليل؟ أو لام العاقبة والصَّيْرورة؟

بعضهم يقول لام تعليل : هكذا فعلوا لِيُضلُّوا الآخرين عن سبيل الله ، يعني الزعماء يفعلون ذلك ليُضلُّوا أتباعهم .

والبعض يقول : هذه لام العاقبة ، أي : إنّ عاقبة عملهم أن يُضلُّوا الآخرين عن سبيل الله . كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص:٨) ، يعني هذه اللام تُسمَّى لام الصيرورة أو العاقبة ، يعني هم لم يلتقطوا هذا الطفل ، أو هذا الوليد ليكونَ لهم عدوًا وحَزَنًا ، ولكن العاقبة والنتيجة كانت كذلك ، فهؤلاء جَعَلوا لله أندادًا لتكون النتيجة : ليُضلوا عن سبيل الله ، عن طريق الله ، عن طريق الحقِّ ، عن طريق التوحيد .

متاع المشركين الزائل :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

أي : تمتَّعوا أيُّها المشركون ، تَمتَّعوا بِشرككم ، تَمتَّعوا بضلالكم ، تَمتَّعوا بشهواتكم ، تَمتَّعوا بدنياكم ، فهذه المُتعة ، أو هذا المَتاع ، متاعٌ زائل ، مهما طال فإنه سيتركُكُم أو تتركونه ، وتنتقلون إلى دار أُخرى مصيركم فيها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر:٨) .

OBEIKAN.COM

هؤلاء يقول لهم : ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ ، تَمتَّعوا بكفركم ، وتَمتَّعوا بدنياكم ، ولكن هذا المتاع متاع الغُرور ، متاعٌ قليل ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧) ، ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨) .

﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ، ومَنْ كان مصيره إلى النار فكيف يتمتَّع ، وما قيمة ما يتمتَّع به ، إذا كانت العاقبة والنهاية هي جهنَّم وبئس القَرار!!

وصية الله لعباده بإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

دلالة قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ﴾ ، الخطاب لمحمد ﷺ ، والقرآن تتكرَّر فيه هذه اللفظة : ﴿ قُل ﴾ ، ومعناها أنَّ محمَّدًا مأمورٌ ، فهناك مَنْ يُلقِّنه مَنْ يأمره ويقول: ﴿ قُل ﴾ ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة:٦٧) ، قُل كذا .

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، لم يقل : (وقل لعبادي) ، إنما أراد ألا يعطفها على قوله سبحانه : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ، لأنَّ هذا نوع وهذا نوع ، فينبغي فَصْل هذا عن ذاك .

شرف العبوديَّة لله عزَّ وجلَّ :

هؤلاء هم الخُلَّص من عباد الله : ﴿ عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، أضافهم الله إلى نفسه : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ﴾ ، تشريفًا لهم وتكريمًا ، وأنَّهم الأحِقَّاء بعبوديَّة الله ، فلا يستحقُّ أن يُنْسب إلى الله غيرهم . الجميع عبادُ الله وخَلْقُ الله ، ولكن لا يُضاف إليه إلا أمثالُ هؤلاء الذين لا يستطيع الشيطان أن يَتسلَّط عليهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (الحجر:٤٢) .

تميُّز جماعة المؤمنين :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، آمنوا بالله ربًّا ، وآمنوا بالإسلام دينًا ، وآمنوا بمحمَّد رسولاً ، وآمنوا بالقرآن إمامًا ومنهاجًا . القرآن سمَّاهم بهذا الاسم : ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ ، لأنه أصبح مصطلحًا على هذه الجماعة من الناس ، فعُرفوا بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .

يوجد ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ و ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، ويوجد ﴿ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ و ﴿ ٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾ و﴿ ٱلْمَجُوسَ ﴾ و﴿ ٱلصَّـٰبِـُٔونَ ﴾ .

جماعة الذين آمنوا أصبحت جماعة متميِّزة ، الذين آمنوا بمحمد ، وبالقرآن .

﴿ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ، أمرهم أن يسيروا في طريقهم المُخالف عن طريق أولئك الذين أحلُّوا قومهم دارَ البوار ، والذين جعَلوا لله أندادًا ليضلُّوا عن سبيله ، هذا الطريق غير هذا الطريق ، هذا هو الصِّراط المستقيم .

أمران أساسيان في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم :

وأول ما يؤمر به لهذا الصِّراط المستقيم أمران أساسيان : إقامة الصلاة ، والإنفاق ممَّا رزق الله . الصلاة تمثِّل حقَّ الله ، والإنفاقُ يمثِّل حقَّ الإنسان ، الصلاة تمثِّل العبادة البدنيَّة ، والإنفاق يمثِّل العبادة المالية ، فكثيرًا ما يذكر القرآن هذين الأمرين ، وأحيانًا تُذكَرُ الصلاة والزكاة ، قَرَنَ القرآنُ الصلاة والزكاة في ثمانية وعشرين موضعًا ، وأحيانًا يأتي بدل كلمة الزكاة : الإنفاق .

كما في وصف المتَّقين في أوائل سورة البقرة : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) .

وكما في وصف المؤمنين في أوائل سورة الأنفال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الأنفال:٢،٣).

وفي سورة فاطر : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر:٢٩،٣٠) .

وفي سورة الشُّورى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨) ، فهذان أمران أساسيان في بناء الشخصيَّة المسلمة ، وفي بناء المجتمع المسلم .

معنى إقامة الصلاة :

لم يقل : (يؤدُّوا الصَّلاة) ، أو (يفعلوا الصَّلاة) . لكن قال : ﴿ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ . ومعناها : أداؤها قائمةً مستويةً على وجهها ، بأن تُؤدَّى في أوقاتها الخمس ، وأن تُؤدَّى كاملة الشروط والأركان ، بركوعها وسجودها ، وبروُحها وهو الخشوع : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون:٢) ، كلُّ هذا من إقامة الصلاة .

دلالة قوله سبحانه : ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ، لم يقل : ينفقوا من أموالهم سرًّا وعَلانية ؛ لأنه أراد أن يذكِّرهم بأنَّ الأموال التي يمتلكونها ، وتسجَّل بأسمائهم في السِّجل العقاري ، أو الأماكن المختلفة لتسجيل المُمتلكات ، هي في الحقيقة مِلْكُ الله ، اللهُ مالكُها ، والله رازقُها ، ولذلك بَدَل أن يقول : (من أموالهم) . يقول : ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ، يعني : لا تظن أنك مُتَفَضِّل بما تُنفق ، هذا من رزقِ الله وفضله عليك .

كم من أناسٍ من حَوْلك يكدحون ويتعبون ، ويواصلون تعبَ النهار بسهر الليل ، ولا يحصلُون على شيء ، ولكنَّ الله يسَّر لك ورزقك ، فاعرف فَضْلَ الله تعالى عليك . ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ، من رزق الله تعالى تنفق ، وهذا يذكر بالفكرة الإسلامية

المعروفة في الاقتصاد الإسلامي ، (فكرة الاستخلاف) ، أنَّ المال في الحقيقة مالُ الله ، والإنسان مُسْتَخْلَف فيه ، أي : الإنسان موظَّف عند الله مالكِ المال : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (النور:٣٣) ، ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد:٧) ، أي : أنك مُسْتخلف في المال ، نائبٌ عن الله ، عن صاحب المال في إنفاق هذا المال وتوزيعه بالعدل ، وتنْميته بالحقِّ ، وكَسْبه بالحلال .

قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، أي : من بعض ما رزقناهم من الحلال ، فهو لم يطلب منك أن تُنفق كلَّ ما رَزَقَكَ الله ، ثم تقعد عالة على غيرك ـ كما يقولون ـ يدك والأرض . لا ، بل تنفق بعض ما رزقك الله ، وهذا من فضل الله علينا أنه يطلب منا قليلاً من كثير .

شمول معنى الإنفاق :

والإنفاق يشمل أوَّل ما يشمل إيتاء الزكاة ، فكلمة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، أول ما ينطبق عليها : إيتاء الزكاة ؛ لأنها هي الركن الثالث ، والفريضة المُعظَّمة في الإسلام ، وهي قنطرة الإسلام ، كما أنَّ الصلاة عمود الإسلام .

يطلب منا قليل من كثير ، غَيْض من فَيْض ، اثنان ونصف في المائة ، ترك لك سبعة وتسعين ونصف ، وطلب منك اثنين ونصف في المائة .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، سواء كان هذا الإنفاق هو الزكاة ، أو الإنفاق على الأهل والأولاد والأقارب الذين تجب نفقتهم عليه ، أو على الجيران : « ما آمن بي مَن بات شبعان وجاره جائع إلى جَنْبه وهو يعلم به » أو إحسان إلى الناس عامَّة ، كلمة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، تشمل هذا كلَّه .

الإنفاق في السِّرِّ والعلانية :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ، حيث ما تيسَّر له ، ينفق في السرِّ خفية دون إطلاع أحد إذا كان السِّرُّ

OBEIKAN.COM

أولى وأفضل ، إذا خاف على نفسه الرياء ينفق في السِّرِّ ، يَتَصَدَّق : يُعطي بيمينه حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، كناية عن شدَّة الخفاء .

ولكن أحيانًا يطلب العلانية ، أداء الزكاة يجب أن يكون علانية جهارًا بعلم الآخرين حتى لا يُتَّهم بأنه لا يخرج زكاته ، وليعطي القدوة لغيره .

الفرائض يُعْلَنُ بها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ ﴾ (البقرة: ٢٧١) .

فالإنفاق يكون سرًّا ، ويكون علانية : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) .

يوم الأنانيَّة الفردية :

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾

هؤلاء عليهم أن يُبادروا بالإنفاق : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ، بادر بالإنفاق قبل أن يُغلَق الباب أمامك ولا تستطيع الإنفاق ، وذلك في يوم ليس فيه معاوضات ، وليس فيه تبرُّعات ، ليس هناك مالٌ حتى تبيع وتشتري ، وليس هناك أحدٌ يتبرَّع لك ؛ لأنَّ في يوم القيامة كلُّ واحد يقول : نفسي نفسي .

إنه يوم الأنانيَّة الفرديَّة المُطْلَقة ، يوم ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان: ٣٣) ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧) ، لا أحدٌ يُغني عن أحدٍ .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ، الخِلَال : يعني المُخَالَّة . نقول عنها : مصدر خالَّ خالل يُخَالل خِلالاً ومُخَاللة ، وتعني الصداقة . ليس هناك صديق يتبرَّع لك بشيء ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة:٢٥٤) .

ليس هناك إنسان يبيع لأحد أو يشتري من أحد ، ولا خُلَّة ـ لا صداقة ـ ولا شفاعة : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:٤٨) ، هذا يوم القيامة .

المبادرة إلى الإنفاق :

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ، هل هذا راجع إلى الأمرين : الصلاة والإنفاق ، أم إلى الإنفاق وحده؟

قد يرجع للأمرين ، إنما الأغلب والأقرب إلى الذهن أنه راجعٌ إلى الإنفاق ؛ لأنَّ الإنسان يبخل به ، ويشحُّ به ، وتَغْلبه نفسه الشحيحة : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ (النساء:١٢٨) ، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء:١٠٠) .

فالقضية هي قضية الإنفاق ، فيقول له : أنفق قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال .

وآية سورة البقرة : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ (البقرة:٢٥٤) ، تُرجِّح هذا .

* * *